موقف المؤمن مع منكري حاكمية الله

٢٥-٠٧-٢٠٠٨

أنـزل الله تبارك وتعالى هذا القرآن العظيم لا لمجرد تعليم الإنسان كيف يعبد الله في المسجد، ولا لمجرد توجيهه في المحراب، لكنه أنـزله ليكون دستور حياة، وليكون مرشدًا وموجهًا للإنسان في كل وقت من أوقاته، وفي كل نفس من أنفاسه، بل إنه أنـزله ليحول الإنسان إلى قرآن متحرك يتحرك بمراد الله، وليكون به مجردًا عن الهوى، ويكون سبحانه وتعالى بهذا قد قدّم إلى الإنسانية هدية عظيمة، لأن الإنسانية من غير القرآن ستبقى في ظلمها وظلمانيتها وجهلها وتخبطها وحيرتها واضطرابها... وهذا ما نشهده اليوم.

ومن المؤسف أن لا تكون المجتمعات غير المسلمة وحدها هي التي تُعرِض عن القرآن منهاجًا ودستورًا وموجِّهًا ومعلمًا، إنما أصبحت المجتمعات المسلمة كذلك، وأصبحت أكثر الأنظمة في تلك المجتمعات تتحدث عن القرآن وعن شكليته، وأهملت مضمونه.

واخترت لكم في هذااليوم نصًا من نصوص الكتاب المبين يعالج هذه القضية، يخاطب المؤمن الذي أحب القرآن وتفاعَلَ معه وأدرك شيئًا من أسراره، ورأى كيف حوَّل سيدُنا محمد عليه الصلاة والسلام بالقرآن الناسَ، من بداوة وغلظة وجاهلية وتظالم وتفاخر وتحاسد... إلى أمة عالمة عابدة منيرة ومستنيرة.

هذا النص يخفف عن المؤمن ما يجده في قلبه من الألم، وهو يرى مجادلين يجادلون في القرآن، أو معرضين أعرضوا عنه، أو غافلين جعلوه وراءهم ظهريًّا، ليتجمعوا خلف مصالحهم وأهوائهم من غير أن يكون لهم مبدأ إلهيٌّ ينقذهم مما هم فيه من الظلمانية والاضطراب.

يقول الله تعالى: {مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلاَّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلادِ، كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالأحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ، وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ، الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ، رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ، وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ، إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ، قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ، ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ، هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلاَّ مَنْ يُنِيبُ، فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ} [غافر: ١-١٤]

وربما نستطيع فهم النص حينما نُعَنْوِنُ بعض آياته، فالقضية التي يعالجها هذا النص هي جدالُ مُجادِل وإعراضُ مُعرِض يقف أمامه المؤمن متعجبًا: كيف يمكن لهذا الإنسان في لحظة من لحظات هيمنة هواه عليه أن يتمرد على خالقه، بل أن يتمرد على صلاح نفسه، بل أن يتمرد على ما فيه خيره؟!

العنوان الأول يأتي لتوصيف أولئك المجادلين، فمع أنهم جادلوا وأعرضوا وكذبوا لكنهم يتقلبون في البلاد ويفعلون فيها ما يشاؤون، وتطال أيديهم من حيث الظاهر كل ما يريدونه، لكنه سبحانه

وتعالى - وهو يحكي عنهم - يقارن بينهم وبين من جادل قبلهم، لتصل أيها المؤمن من خلال هذه المقارنة إلى حالة من الارتياح، وأنت ترى سلطان الله تبارك وتعالى يهيمن على سلطانهم.

مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلاَّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلادِ} فإياك أن تقع أسير الوهم وأنت ترى يدًا طولاً تطال ما كان حقًّا وما كان باطلاً، وقارن بمن جادل وكذب وأعرض قبلهم، فهي سنة الله، فإياك أن تغفل عن سنة الله في خلقه وعباده.

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ}أي الأمم التي كذبت الرسل كعاد وثمود وغيرها، ومن كان على شاكلة أولئك المكذبين، وعندما يحكي القرآن عن نوح عليه الصلاة والسلام فإنه يحكي عن رسولٍ دعا قومه ليلاً ونهارًا فلم يزدهم دعاؤه إلا فرارًا، ويحكي عن رسولٍ دعا قومه ألف سنة إلاَّ خمسين عامًا، ويحكي عن رسولٍ ما آمن معه إلاَّ قليل، وهكذا تنظر إلى الأسوة والقدوة فترى نفسك مقصِّرًا، وترى نفسك لم تقم بشيء مما قام به مَن تنظر إليه أسوةً وقدوة.

- ثم قال تعالى: {وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ}أي أرادت كل أمة من هذه الأمم المكذبة أن تقتل رسولها، وأن تزيحه وتزيله.

{وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ}ليزيلوا به الحقَّ، فقد أرادوا إزالة الحقِّ وإزالة أصحابه.

{فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ}وهاهنا ينظر المؤمن إلى فعل الله وسنته، فبعد أن هَمَّتْ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ}كانت النتيجة: {أَخَذْتُهُمْ}، فقد أرادوا أن يأخذوا الحق وأهله فأخذهم الله، والجزاء من جنس العمل.

فإذا ضيَّقَ أهل الباطل على أهل الحقّ يُضيِّق الله عليهم، وإذا أراد أهل الباطل إزالة الحقِّ وأهلِه يزيلهم الله، فهذه سنة الله.

لكن لا يكون هذا إلا حين يكون الحقُّ موجودًا وأهلُ الحقّ كذلك، أما الأدعياء والذين ينسبون أنفسهم إلى الحقّ فلا يستحقون مثل هذا، فلابد حتى تتحقق هذه السنة الربانية من وجود منهج الحقّ الواضح ووجود أهله الذين يتحققون به ولا يدّعونه ادّعاءً.

منهجُ الحقّ: هو الذي لا يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض، ولا يقرأ جزئية من جزئيات الكتاب ويُهمل غيرها، وهو الذي يؤمن بالكتاب كلّه، ويستمد سلوكه من الكتاب كلّه، فهذا هو منهج الحق.

وأما أصحابه: فهم الذين تفاعلوا مع هذا المنهج في أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم، فلم يميلوا بقلوبهم إلى سواه، واعتمدوا على الله وحده، فإن تحقق هذا تتحقق السنة الكونية: {أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ}.

{وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ }فنبّه إلى نهاية المجادلين.

وبعد هذا يأتي النص القرآني بموقف الملأ الأعلى، الذين يقفون فيه مع أهل الإيمان، ويحاربون ويكرهون ويُبغِضون من عاداهم، وفي هذا النص يذكر الملائكة مرتين:

الأولى {الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ}، والثانية عندما تخاطب الملائكة أهل النار في النار {إِذْ تُدْعَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ }.

فالنص إذ ًا هاهنا يورد الملائكة مرتين، مرّة يبين فيها للمؤمن أنك لا تقف وحدك، وإن كان مِن البشر مَن يقف معك قليل، لكن الملأ الأعلى والذين يحملون العرش وملائكة الله الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، يقفون معك، ولو كنت وحدك على الحقّ .

إنه موقف داعمٌ مثبِّتٌ لك إن كنت من أهل التصديق بالغيب.

وهكذا يُخرجك الله من عزلتك، ومن فرديتك، ومن وهم القلّة الذي يقع فيه أهلُ المحسوس وأهلُ العادة.

ألم يعنِّف سيدُنا خالد رضي الله عنه ذلك الجنديَّ الذي قال: ما أكثر الروم وما أقل المسلمين؟ وقال له: بل ما أكثر المسلمين وما أقل الروم!

وهكذا يُضاف إلى العدد القليل عددٌ كبير من ملائكة الله.

فيا من يستند قلبه إلى القوة والعدد والعُدَد... ها هي المعادلة تتغير حينما يضيف الله سبحانه وتعالى في هذا النص ليدعمك، وليدعم موقفك، وليدعم حالتك النفسية والمعنوية، يضيف إليك من الجنود جنودَه الذين يعلمهم هو، والذين هم في العَدد والعُدد يفوقون بكثير أصحاب المادة.

وهكذا يبقى المؤمن وهو يقرأ هذا النص على ثقةٍ بالله سبحانه وتعالى ويقينٍ .

{ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ} فإذا كان أولئك المجادلون لا يعظمون الله فإن ملائكة الله تعظم كما تعظم أيها المؤمن أنت.

{ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا} يقفون موقفًا موحَّدًا ومُوَحِّدًا، فكما يستغفر الذين آمنوا للذين آمنوا يستغفر الملائكة للذين آمنوا.

{ وَرَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ }فلئن فاتك خيرٌ ماديٌّ محسوس في هذه الدنيا فلا يفوتك في الآخرة، وهاهم الملائكة يتوجهون إلى الله بالدعاء لك لتكون محصِّلاً ذلك الخير.

{ وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}وكأن هذا النص يقول للؤمن: لا تخف على مستقبل أولادك لأن الملائكة في السماء، ولأن الملأ الأعلى يتوجهون إلى الله بالدعاء لحفظ مستقبل ذريّاتك.

{وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ}حتى لا تقع بسبب سيئاتك، ولابد لك من سيئات أيها المؤمن، فستقع في السيئات، لكن الذي يكرمه الله سبحانه وتعال في الآخرة يقيه شرَّ سيئاته، فلا تستطيع سيئاته أن تطاله.

لابد لك من سيئات، فأنت خطَّاءٌ **(كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ)**،لكن سيئاتك لا تطالك لأن الله سبحانه وتعالى يحميك من سيئاتك.

{وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}.

ثم انتقل بعد ذلك إلى توصيفٍ داعمٍ لك، فبعد أن تحدَّث عن جدال المجادلين وسنة الله فيهم، وتحدَّث عن دعم الملأ الأعلى للمؤمنين، تحدَّث عن أمر آخر وهو أن الله سبحانه وتعالى، مع ما يملكه أولئك المجادلون من قوة مادية، لكنه سبحانه يَكرههم ويُبغضهم ويمقتهم، فهم في مقت الله، ومن يستشعر هذا العنوان فإنه يكتفي بالقليل القليل لأنه في رضا الله وغيرُه في مقته، وشتان بين الفريقين: فريق يكون غارقًا في رضوان الله ورحمته، وفريق يأكل من المادة، ويؤذي الناس، وتمتد يده إلى كل شيء حتى ولو كان ذلك الشيء من الحرام الصرف، لكنه يعيش في مقت الله، وفي كراهيته، وفي بغضه.

دخل عمر رضي الله عنه فرأى رسول الله صلى الله عليه وسلم مضجعًا على حصيرٍ وقد أثّر في جنبه، فبكى، فقال صلى الله عليه وسلم: **ما يبكيك يا عمر؟**قال: أنت رسول الله، وكسرى وقيصر على الفرش، وأنت يؤثِّر في جنك الحصير؟ فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: **يا عمر، أولئك قوم عُجِّلت لهم طيباتهم،** وإذا كانت لهم الدنيا فلنا الآخرة.

هكذا ينظر المؤمن.

وهكذا فهم سيدنا علي رضي الله تعالى عنه من قوله تعالى: {وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً} [النساء: ١٤١] أن هذا يكون يوم القيامة، لأن قوله تعالى الذي سبق قوله: {وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً} هو: {اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ}.

فلا تَدَّقوا قلوبكم بالدنيا، فإن كان ما كان من نصر أو غلبة أو تفوق في يوم من الأيام لأهل الإيمان فهو ابتلاء.

نعم، حين جاءت إلى سيدنا عمر رضي الله عنه كنوز كسرى، وأصبح الذهبُ يملأ بيت مال المسلمين، بكى، وقال: لم يحصل هذا في زمن رسول الله ولا في زمن أبي بكر، وهم خيرٌ مني، ولولا أنه بلاء لما سُلِّط عَلَيّ، فقد حفظ الله مِن هذا رسولَه وأبا بكر.

هكذا كان ينظر الفاروق.

بكى وقال: لو كان فيَّ خيرٌ لما وصل إليَّ هذا.

فكان ينظر إلى ما جاءه وفُتح عليه من الدنيا على أنه بلاء، لأن الله سبحانه وتعالى حين يعطي الدنيا أو السلطان أو الجاه، فإنه يسلط على عبده بلاء ويختبره فيه: ماذا ستفعل في هذا؟

والذي لا يعطى مالاً ولا جاهًا ولا سلطانًا فقد نجا من الابتلاء، والذي أعطي المال والجاه والسلطان فإن الله سبحانه وتعالى ناظرٌ إليه ما الذي سيفعله في ماله وجاهه وسلطانه؟

وهكذا بكى عمر وبكى وبكى وفرّق المال.

أما علي رضي الله تعالى عنه فإنه حينما وصله المال جمع الناس ووزَّع المال عليهم، وأمر بعد ذلك أن يغسلوا بيت المال وأن ينضحوه، وصلى فيه واتخذه مسجدًا ليشهد له يوم القيامة أنه لم يترك فيه درهمًا ولا دينارًا.

هؤلاء هم أولياء الله.. هؤلاء هم خاصّة الله.. هؤلاء هم الذين فهموا عن الله.. هؤلاء هم الذين عرفوا ما الفارق بين الممر والمقر..

{لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ}أي أنتم في النار اليوم تمقتون أنفسكم وتكرهون أنفسكم، لكن مقت الله لكم حين دُعيتم إلى الإيمان فكفرتم كان أكبر من مقتكم لأنفسكم وأنتم في النار، فمقت الله لكم في الدنيا حين دُعيتم إلى الإيمان فكفرتم هو أكبر من مقتكم لأنفسكم وأنتم تذوقون عذاب النار.

{وَقَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ}أي: هل ينفعنا أننا نتذلل بين يديك اليوم ونعترف؟

وهل ينفع مثل هذا التذلل يا من تجبرتم وتكبرتم؟

يا من استعبدتم عباد الله وقد خلقهم ربهم أحرارًا، ويا من تسلطتم على خلق الله، هل ينفع تذللكم في ذلك الموقف؟

لا والله، فقد قال لفرعون قبل أن يصل إلى النار حين كان يغرق: {آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ} [يونس: ٩١]فقد كان في الدنيا زمان تكليف لك، فخسرت في ذلك الامتحان، فلا ينفع التذلل والاعتراف بعد التجبر والاقتراف.

ذَلِكُمْ بِقَوْلِكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ تُرِيدُونَ أَنْ تُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِكُمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ} فإذا كانت القضية مزجًا بين حقٍّ وباطل فأنتم في الصدارة تتحدثون عن المزج، فقد أدرجوا فضيلة مع رذيلة، وأدرجوا توحيدًا مع شرك، وأدرجوا عهرًا مع ستر، ومثل هذا لا يقبله الله.

{اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ}.

- ثم قال سبحانه: {الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ}يا من يجادل، ويا من يعرض.. أما ترون الآيات؟

إذا أنكرتم آيات القرآن التي نزلت إليكم لتهديكم أما ترون آيات الكون التي أشهدكم إياها؟

أما تتفكرون بعقولكم؟

فإن كنتم لا ترون الغيب الذي سترونه فيما بعد ألا ترون الآيات؟ ألا ترون البراهين؟ ألا ترون الدلائل...؟

{وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ}أي: إلاَّ من يرجع إلى الله.

- وهكذا ختم سبحانه وتعالى النصَّ بقوله عن المؤمنين: {مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ} أي: لا تلتفتوا.

يا أهل الإيمان لا تلتفتوا، واربطوا بين قوله تعالى: {مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ} وقوله في أول السورة: {لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ}فلا تلتفتوا، ووجِّهوا قلوبكم إلى الله، فالله معكم، والملأ الأعلى معكم، ورضاء الله يحوط بكم، لكن تمسكوا بالحق واثبتوا عليه.

اللهم إنا نسألك أن تجعلنا ممن يثبت على الحق يا الله، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

أقول هذا القول وأستغفر الله.